أبواب الجحيم

أةةةةةةةة».. صرخة دائمًا ما تدوي داخل المعتقلات، قد يكون صاحبها متشدد أو متطرف أو حتي في سنة أولي إرهاب، كورباج ورا كورباج، شحنة كهرباء أو نار السيجار علي الجسد تنطفي، ومع كل نقطة دم تسيل علي أرض الزنازين، يكبر الإرهابي النونو ويصبح خليفة جماعة من المعذبين، ليخرج من السجون وينتقم من المجتمع، بل من الإنسانية التي فقدوها، أو أُجبر علي فقدها داخل السجون.

●●●

انطلقت صرخة مدوية داخل المنزل الطيني، لتخترق جدار الصمت الذي ساد القرية العراقية الفقيرة التابعة لمحافظة «ديالي»، والمتأخمة للحدود الإيرانية، صرخة أم تدفع ألمًا وليدها ليخرج إلي الهواء الطلق، التفت حولها نساء قريتها يشمرن عن سواعدهن لمساعدتها في دفع وليدها للحياة، يصل إلي مسامعهن زفرات زوج يقطع الغرفة إيابًا وذهابًا، لا يعلمن هل قلقًا علي زوجته أم شوقًا للقاء طفلة.

تهللت أسارير الزوج فرحاً عندما سمع بأذنيه صراخ طفل، دمعت عينية، وراح يقفز مهللاً "لقد أصبح عواد أبًا.. لقد أصبح عواد أبًا".. لم يشعر الرجل بأصدقائه وبأهل قريته وهم يهنئونه، كانت كل حواسه هناك، داخل الغرفة مع وليده وزوجته، كان يردد هامسًا: "لقد جاء يا حبيبتي.. إبننا جاء.. سيكون خليلي في هذه الدنيا.. نعم سأسميه إبراهيم.. إبراهيم عواد إبراهيم علي البدري السامرائي.

●●●

"داخل إحدي الغرف السكنية النائية بمحافظة الأنبار وتحديدًا في مدينة الفلوجة، جلس البغدادي يطالع كتابًا دينيًا لأحد فقهاء الإسلام السياسي، لقد أصبح شابًا لم يتجاوز الثانية والثلاثون بعد، قمحي البشرة ذو عيون ثاقبة سوداء وجبهة عريضة، يرتدي جلباب ابيض قصير وسروال من نفس اللون، كان يقرأ صفحات كتابه بتركيز عجيب، غير عابئ بالإضاءة الخافتة والنوافذ المغلقة، بين الفينة والأخرى يرفع يديه ليعدل من نظارته الطبية، أو ليمسح علي لحيته السوداء التي أطلقها منذ سنين عددا.

وبينما هو منهمكًا في القراءة، انتفض فزعًا عقب سماع جلبة خارج غرفته، فقد علم المارينز أخيرًا مخبئه، وتحاصره شرذمة منهم للقبض عليه، نظر البغدادي إلي سلاحه، حاول أن يقاوم إلا أن ضربة قويه أفقدته الوعي ليسقط بين العشرات كجلمود صخر.

"أنت.. قم.. اصحي".. كلمات عربية بلكنة ركيكة يبدوا أن صاحبها لا يتحدث لغتها، خُيل لـ"البغدادي" أنها مجرد كلمات يسمع صداها في أحد كوابيسه، والتي لم تفارقه منذ أن انشق عن تنظيم القاعدة، وقرر أن يحمل السلاح لمقاومة الأمريكان، عنف ما تلقاه جسده من ضربات جعلته يدرك أن ما يسمعه ويشعر به ليس حُلمًا، بل واقع أشد قسوة من كل كوابيس الأرض، حاول أن يفتح عينيه، لم يطاوعه جفنية، حاول أن يقف، ولكنه فشل، فقد كبلوا يديه وعصبوا عينيه، فتمتم بصوت واهن، كيف أنهض؟.

شعر البغدادي بيد أحد الجنود تفك وثاق قدميه، وبيد أخر تزيح عصابة عينيه، ثم امتدت اليد الأولي لتساعده علي النهوض، للوهلة الأولي أدرك أين هو، إنه داخل إحدي مدرعات الجيش الأمريكي تقف أمام واحده من أسوأ السجون الأمريكية سمعة في بلدة الكرمة، إنه سجن "بوكا" الممتد الأطراف على امتداد الحدود الكويتية، والذي يضم بعضًا من أكثر متطرفي العراق، بل والإقليم كله.

"هيا انزل من السيارة".. نفس الصوت الركيك عاد ليدفعه بهراوة غليظة من جديد، اضطر البغدادي تحت تأثيرها للنزول من السيارة العسكرية، وأخذ يسير ببطء في طريقه إلى السجن، فقد فكوا وثاقه ولكنهم تركوه مكبلا بالسلاسل الحديدية والأغلال، يقوده ثلاثة من المارينز إلي ساحة واسعة تطل عليها

ثلاثة مباني ذات إضاءة ساطعة، ثم إلى متاهة من الأروقة تنفتح على باحة بها رجال وقفوا يحملقون فيه بحذر، يلتحفون زيًا ذا لون أصفر زاهي.

دخل أبو بكر البغدادي معسكر بوكا شابا يبلغ من العمر ٣٢ عامًا، وأصبح اليوم الزعيم والخليفة لتنظيم داعش الإرهابي في سوريا والعراق، بعد أن قضي ما يقرب من ثلاثة سنوات داخل إحدي زنازين سجن بوكا، ذلك السجن الذي وجد فيه ضالته، من معتقل يرغب في الإنتقام، إلي متطرف يسعى للتدريب الفكري والأيديولوجي، لإرهابي نونو يريد أن يتوحش، ومع الوقت يتحول إلي زعيم من المتوحشين.

●●●

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. السلام عليكم ورحمة الله».. أنهي الشيخ جابر صلاة العصر فردد خلفه المُصلين ما قال، لم يكن بالمسجد سوي بضع لا يزيد عن تسعة من الرجال، لم يكن مسجداً بل زاوية صغيرة من الطين اللبن، كتلك التي تنتشر في قري مدينة بلطيم في منتصف ستينيات القرن الماضي، يتسلل من نافذتها الوحيدة هواء بحيرة البرلس الصيفي، ما خلق سكينة روحانية بين المُصلين.

في أحد أركان المسجد انزوي أحدهم بجلبابه الأبيض ولحيته السوداء يردد بعض الأدعية، من فرط خشوعه لم يشعر بمن يقترب منه، رجل عظيم الجثة، أسمر البشرة، حليق الرأس، كث اللحية، وضع كفه الغليظ علي كتفيه قائلاً: أراك لا تترك صلاة معنا، وكأنك منذ اليوم واحدًا منا، كرجل عسكري إرتابه، لم يدرك في بادئ الأمر مقصده، لكنه فطن إلي مأربه، حينما ردد بابتسامة صفراء، كُن معنا، وقبل أن ينسلخ النهار من الليل، هرع الرجل إلي القاهرة، وهناك التقي قائدة ليبلغه سرًا بأمر ذاك الذي يريد تجنيده، ففُتحت أبواب جهنم.

●●●

أضحي ركاب المترو وكأنهم أشجار ساكنة في الغابة الموحشة